الألـــم في النصـــــــــوص الدينيـــــــة: دراسة مقارنة

زهرة الثابت – كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رقادة، القيروان – تونس

Pain in the religious texts: a comparative approach

Zohra Thabet, University of arts and human sciences,
Raccada, Kairouan, Tunisia
(thzohra@gmail.com)

ملخص: تطمح هذه الورقة العلمية إلى تناول ظاهرة الألم في النصوص الدينية من خلال دراسة مقارنة لهذه الظاهرة بين النصوص المقدسة والنص الديني القصصي، عدتنا في ذلك العهد القديم والعهد الجديد والقرآن الكريم وعرائس المجالس للثعلبي النيسابوري. وقد توصلت الدراسة إلى تبين أنواع الألم بهذه المدونة وتقصي أبعاد هذه الظاهرة في النصوص التي اعتمدنا وعقد مقارنة بينها للوقوف عند معاقد النسب ومواطن الاختلاف. وتوسلنا في ذلك المنهج الاستقرائي والمنهج المقارني على صعوبته.

الكلمات المفاتيح: النصوص المقدسة – العهد القديم – العهد الجديد – القرآن الكريم - عرائس المجالس – الألم.

Abstract:

This scientific paper aims to study the pain phenomenon in the religious texts, through a comparative study of this phenomenon between sacred texts and the religious narrative text. And that is by means of the Ancient Testament, New Testament, Holy Coran, and the book of "3araaiss-al-majaliss" for "Atha3labi- Annisaburi". So this study showed the types of pain in the blog and found out the dimensions of this phenomenon in the texts that we relied on and made a comparison between them, to distinguish the points of similarities and differences. And we used the inductive and comparative approach despite its difficulty.

Keywords:

sacred texts – Ancient Testament – New Testament – Holy Coran – "3raaiss –al –majaaliss" – Pain.

مقدمة البحث

لا شك أن الألم هو قدر الإنسان الذي لا مفر له منه منذ بعث على وجه البسيطة، فمن منا يتصور حياة هذا الكائن من غير ألم أو وجع أو أنين أو عذاب. فالإنسان يستحيل أن ينفلت من **"وجع في الظهر أو من صداع في الرأس أو من ألم أسنان أو خدش أو احتراق أو اصطدام بباب أو سقطة"**[1]، فالألم هو القضاء الذي **"يتسلط على المرء بشكل عابر أو بشكل مزمن حسب الظروف"**[2]، وحياة الإنسان بطبعها رحلة من العذابات ولائحة من الآلام من المهد إلى اللحد.

والألم كظاهرة عامة ظلت ولسنوات عديدة موضوعا للطب والتحليل النفسي اللذين حصرا الألم في بعده العضوي **"حتى كشف الدرس السوسيولوجي والأنتروبولوجي عن عمق تجذره في البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع"**[3]. فنأى بذلك الألم عن أن يكون ظاهرة فيزيولوجية أو تشريحية، وأضحى كما يذكر موريس في كتابه "ثقافة الألم" ظاهرة وثيقة الصلة بالبنية الاجتماعية والثقافية **"فمفاهيمنا عن الألم والضعف والعجز تتضمن عوامل اجتماعية لا تقل في أهميتها عن العوامل العضوية"**[4].

والمتأمل في النصوص الدينية يلحظ أن الألم وما تناسل حوله من مفردات تنتمي إلى نفس الحقل الدلالي، من أكثر المفاهيم حضورا في النصوص الدينية المقدسة، وذلك لارتباط الحياة بالألم والنصب والشقاء ولوعيد الإله من عذابه الأليم في الآخرة. لذلك كان الألم حاضرا في تجار ب الأنبياء وفي بعض الطقوس الدينية كاحتفال الشيعة مثلا بعاشوراء. ونروم من خلال هذه الورقة العلمية تناول ظاهرة الألم في النصوص الدينية وتقصي أنواعها عدتنا في ذلك العهد القديم والعهد الجديد والقرآن الكريم وعرائس المجالس للثعلبي النيسابوري. إن منتهى ما نصبو إليه إنما هو رصد أشكال التحول في ظاهرة الألم عند الرحيل الثقافي من الثقافة اليهومسيحية إلى الثقافة الإسلامية.

وإن المتدبر في النصوص الدينية التي اعتمدنا ليلحظ أن الألم هو عصب الكتابة، وهو المداد الذي أريقت به هذه النصوص، وهو يجمع بين الألم النفسي والألم العضوي. فأنت إن قلبت النظر في هذه المدونة توقفت عند ألوان شتى من الآلام والعذابات. فقد يكون الألم عقابا إلهيا مثلما تجليه قصة آدم وحواء، وقد يكون ألما ناجما عن الحزن مثلما

تبينه قصة يعقوب مع ابنه يوسف الفقيد. وقد يكون الألم سببه الاضطهاد النفسي كذاك الألم الذي عاشه إبراهيم مع قومه وموسى مع شعبه. كما يمكن أن يكون الألم أيضا مرده العشق كما يلوح لنا في تجربتي امرأة العزيز مع يوسف وشيلوميث مع سليمان. وقد يكون الألم أيضا مرده الشعور بالذنب ووخز الضمير كما هو بين في قصة اقتتال الأخوين قابيل وهابيل. على أننا نعثر على أنماط من الألم العضوي تزخر بها النصوص الدينية التي عولنا عليها كألم أيوب جراء المرض وألم إبراهيم مع الختان وألم هاجر مع الخفض وألم مريم عند المخاض وألم ابن إبراهيم عند الذبح وألم المسيح عند الصلب.

❶-<u>في مفهوم الألم</u>

يغدو الحفر في مدلول مصطلح الألم أمرا ضروريا لأن الوقوف عند حدود المصطلح من مقتضيات العلم. والمتقفي لأثر كلمة "ألم" في مظانها المعجمية يلحظ أنها تفيد معنى الوجع، فقد جاء في لسان العرب قوله: **"الألم الوجع والجمع آلام، وقد أَلِمَ الرجل ألما فهو أَلِمٌ، والأليم المؤلم والموجع مثل السميع بمعنى المُسْمِعِ"**[5]. وجاء في التعريفات للجرجاني أن الألم هو " **إدراك المنافر من حيث أنه منافر، ومنافر الشيء هو مقابل ما يلائمه"**[6].

أما صاحب المعجم الفلسفي، فيذكر أن الألم هو "**مقابل اللذة ..والألم واللذة من الأحوال النفسية الأولية فلا يعرفان، بل تذكر خواصهما وشروطهما"**[7]. وعليه إذا فالألم في نظر جميل صليبا يتأبى عن الحصر، لذلك اطمأن إلى تعريف ابن سينا في الإشارات الذي جاء فيه قوله: "**إن اللذة هي إدراك ونيل لوصول ما هو عند المدرك كمال وخير، من حيث هو كذلك، والألم إدراك ونيل لوصول ما هو عند المدرك آفة وشر"**[8]. وعرض صليبا إلى تعاريف كثيرة للألم من وجهة نظر فلسفية، ولكنه استقر على توزيع الألم إلى نوعين: <u>ألم جسماني</u> **"ينشأ عن إحساسات جسمانية ذات مصدر محدود كاحتراق اليد وضرب الضرس ووجع العين"**[9] <u>وألم نفسي</u> **"ينشأ عن تأثير الميول والأفكار والاعتقادات والآراء كمن يسقط في الامتحان فيتألم لعدم بلوغه غايته، وكمثل من يسمع بموت صديق له فيغمه خبر موته"**[10]. وينتهي صليبا إلى حقيقة مؤداها أن الألم إنما ينشأ عن خلل جسماني[11].

ويحاول الباحث "حسني إبراهيم عبد العظيم" أن يتقصى مفهوم الألم في اللغة الإنجليزية فيرى أن مصطلح الألم (pain) إنما يعود **"إلى المفردة المنتمية إلى العصر الوسيط(peine) (1250-1300م)، وكانت تعني العقاب والتعذيب والألم. والكلمة دورها مشتقة من الكلمة اللاتينية (poena) التي تعني الجزاء والألم. والكلمة اللاتينية(poena) مشتقة أيضا من الكلمة اليونانية القديمة (poin) التي تعني الجزاء. وقد استخدمت كلمة (pain) في عام 1297 لتعني العقاب (punishment) خاصة ذلك العقاب المتعلق بالجريمة. وفي عام 1300 استخدمت للإشارة على الحالة التي يشعر بها الفرد بسبب أذى لحق به. ويقال لها مصطلح البهجة أو اللذة(pleasure) ويتضح المعنى المبكر للألم في اللغة الإنجليزية في عبارة في ألم الموت (on pain of death) وتم تسجيل الفعل يلحق الألم (inflict pain) لأول مرة عام 1300م، حيث أن الوسائل المستخدمة للعقاب المفضي للموت كانت بالغة القسوة في العصور الوسطى، وصارت الكلمة بعد ذلك تعني العقاب ذاته. والتأثير البدني للعقاب."**[12]. ويستطرد هذا الباحث ليضيف أن كلمة ألم في معجم التراث الأمريكي (American Heritage Dictionary) إنما تحيل على المعاني التالية:

"-الإحساس غير السار الذي يحدث بدرجات متفاوتة من الشدة نتيجة للجرح أو المرض أو الاضطراب العاطفي.

-المعاناة أو الشدة.

-الآلام (pains) بصيغة الجمع مخاض الولادة.

-مصدر للإزعاج."[13].

ويستشف من هذه التعاريف التي ذكرنا أن مصطلح الألم عصي عن التحديد، فهو قد عرف بأنه ضديد لمصطلح اللذة أو هو يحيل على معاني متجاورة ومترادفة كالوجع والعذاب والعقاب. باختصار لقد ظل الألم لغزا على حد تعبير لوبرتون[14]، لذلك تباينت زوايا النظر في هذا المصطلح بين الطب التشريحي الذي اعتبر الألم نتاجا للإحساس العصبي بالجرح وأن "حدة الألم تقاس بعمق الجرح"[15]، وبين الفكر الفلسفي الذي ذهب

في تعريف الألم مذاهب شتى[16]. غير أننا نميل إلى التسليم بأن الألم هو عمق الإحساس بالوجع وقد يكون نفسيا كما يمكن أن يكون عضويا.

❷-في ضروب الألم في النصوص المقدسة

يبدو أن الألم كان القدر الملازم للأنبياء في تجاربهم الحيوية مع أقوامهم وشعوبهم لأن "**الألم معطى من معطيات الحياة البشرية ولا أحد ينفلت منه في لحظة أو أخرى، لأن حياة من غير ألم أمر لا يتصور. إنه يتسلط على المر ء بشكل عابر أو بشكل مزمن حسب الظروف**"[17]، إذ لم يكن من الهين على النبي تبليغ رسالته والصمود في وجه قومه من أجل مرضاة المقدس من دون أن يتألم أو يتعذب أو يضطهد أو يجرح أو ينكسر أو يمرض أو يقتل وإن المتمعن في هذه التجارب النبوية يلحظ أن هذا الألم توزع إلى صنفين: ألم نفسي وآخر عضوي.

2- 1- **الألم النفسي وأنماطه**

*-ألم العقاب إلهي

تعتبر قصة آدم وحواء من أعتى النماذج البدئية التي تلخص ظاهرة الألم بامتياز، ذلك أن المتدبر في سفر التكوين يلحظ أن الألم مأتاه التمرد على عرش المقدس حين عصى آدم الرب وأكل من الشجرة المحرمة. فالرب قد نبه آدم من مغبة الأكل من شجرة المعرفة قائلا: "**كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة، ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر ،لأنك حين تأكل منها حتما تموت**"[18]، لكن آدم اخترق الحظر بإيعاز من امرأته التي زينت له الأكل من ثمر هذه الشجرة، فكان العقاب جزاء هذا المروق، وكان الألم قدر آدم وحواء على حد السواء. وهو ألم جسدي بالأساس إذا استحال آدم وزوجه جسدين ثقبيين حاملين لشعور الخجل جراء انكشاف عورة كليهما. لذلك سارعا إلى التستر بأوراق التين إذ لما "**أدركا أنهما عريانان خاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين**"[19]. ونلاحظ ههنا أن اللباس كان أداة الزوجين لدرء الألم الذي مرده الشعور بالذنب لأن الزوجين قد أتيا أمرا فريا في رحاب الفضاء المقدس.

فكانا جسدين متهمين، بل إن الرب قد أمعن في تعذيب آدم وزوجه، فألحق بهما آلاما جسدية أخرى حين تحولا من الفضاء المقدس إلى الفضاء الأرضي المدنس. فكان ألم

المخاض أول الوجع بالنسبة إلى حواء فقد جاء قول الرب لها: **"أكثر تكثيرا أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولادا"**[20]. إضافة إلى اشتياقها إلى قرينها وعيشها تئن تحت نير عبوديته إذ هو أبدا يتسلط عليها[21]. أما آدم فقد توعده بضنك العيش والشقاء في كسب القوت وطرده من العالم السماوي المقدس نحو العالم الأرضي المدنس لأنه منبته الأصلي[22]. فتحول الألم في تجربة آدم وحواء من ألم نفسي إلى ألم جسدي عضوي.

أما في القرآن الكريم فالألم في قصة آدم مأتاه المروق عن سلطة الإله واقتراف المحظور بالاقتراب من الشجرة التي نهى الله عنها، فنكث آدم بذلك العهد مع الرب، وكان من الظالمين مثلما توعده الله بذلك في سورة الأعراف[23]. وتملكه وجع الندم الذي أورثه الشعور بالخيبة أو قل ألم الندم مما اقترفت يداه، لذلك طفق هو وزوجه "يخصفان عليهما من ورق الجنة"[24]، ملتمسين الاعتذار في نبرة لا تخلو من شعور بالمرارة لأنهما كانا يخشيان عنف الإله وغضبه فيكونا من الخاسرين[25].

وما حركة الخصف في الحقيقة إلا وسيلة تعبيرية عن شعور بالألم خفي رام من خلاله آدم محاولة العودة إلى وضعه البدئي حين كان لا يعرف وكان الإله وحده يعرف، وحين كان جسدا نموذجيا طاهرا لا اعتلال فيه ولا فساد ولا عورة قد يخجل منها آدم، وقد يختل بسببها النظام في العالم السماوي. وإذا كان الرب في المرجعية اليهودية قد ألحق بآدم وزوجه صنوفا عديدة من الألم الجسدي فإن آدم القرآن لم يلحق به الله إلا الألم النفسي إذ طرده من الجنة وتوعده بأن يكون العداء قدره الذي يلاحقه على وجه البسيطة[26].

وأما في نص الثعلبي فيلحظ المتدبر له أن صاحبه ظل وفيا لما أفصح عنه القرآن إذ الألم مرده عصيان الأمر الإلهي القاضي بالامتناع عن الأكل من الشجرة المحرمة، ومرده الشعور بالخزي لمروق آدم وزوجه عن سلطة الله، ومرده أيضا تففن الذات الإلهية في تعذيب آدم بطرائق وصور رسمها خيال القاص بشكل عجيب، من ذلك أن الله سام آدم العذاب بأن فضحه أمام الملإ وعمق من عقدة الشعور بالذنب داخله حتى هزئ به العالم من حوله **"فتحير آدم وصار هاربا في الجنة، فتلقته شجرة العناب، فأخذت بناصيته"**[27] و**"ظهرت عورته .. فزجرته أشجار الجنة"**[28].

فألم آدم القصصي إنما مأتاه التمثيل به والإمعان في احتقاره والاستهزاء به، مما بعث فيه الشعور بالخزي والعار مما اقترفت يداه. باختصار إنه شعور بالألم أضمره آدم جراء سلوك سادي مازوشي أتاه العالم المحيط به وهو ألم اشتد أواره لما توعده الله بأن يفرق بينه وبين زوجه، ويخلق الفتنة والعداوة بين أبنائه بأن يسلط العدو على أولاده[29] هذا إضافة لشقائه بالأرض وتعبه. أما حواء فعذابها مرده ألم نفسي ناجم عن نقصان عقلها وقلة حظها في الميراث وتبعيتها للرجل إذ هو قوام عليها، وحرمانها من حق الطلاق والجهاد والنبوة والحكم والسفر والجمعة والتسليم عليها[30]، وعذابها أيضا مرده ألم جسدي تمثل في الحيض وثقل الحمل وعسر الولادة.[31]

*<u>ألم الحزن</u>

وتجليه شخصية النبي يعقوب لما فقد يوسف أحب أبنائه إليه. إذ أورث غياب يوسف في المرجعية اليهودية يعقوب الحزن الشديد والكمد، بل الجزع حتى أن هذا الأب **"شق ثيابه وارتدى المسوح على حقويه، وناح على ابنه أياما عديدة"**[32]. واللافت للانتباه أن ألم الحزن قد دفع يعقوب إلى تمزيق ثيابه وارتداء المسوح على حقويه إيذانا بموت يوسف في نظر أبيه الذي يستعد لتأبينه وإقامة مراسم دفنه. وأولى هذه المراسم تمزيق الثياب ووضع المسوح كفرا بالجسد وزينته لأنه رمز للدنيوي. فالألم يضحي في تجربة يعقوب وسيلة من وسائل التطهر من الدنيوي الزائل المكبل رغبة في معانقة الروحاني السرمدي إذ **"الآلام ترتفع بالإنسان إلى مستوى الطهارة القلبية الحقة .. والألم إنما يعني العزلة الروحية والحياة الباطنية العميقة"**[33]. ويذهب الأمر بيعقوب إلى حد طلب الموت.

أما في نص الوحي الإسلامي فقد انفطر قلب يعقوب حزنا على غياب يوسف، وكظم هذا الحزن حتى ابيضت عيناه[34]، وصار يستعذب الألم لأنه أضحى جسدا مثخنا بجراح الفراق. فالم يعقوب صار غصصا وكمدا لأن حزنه " **دائم لا فكاك منه .. وحزن جواني لا بيان عنه**"[35]. بل إن الألم قد أفقد يعقوب بصره حتى لا سبيل إلى استرداده إلا بإلقاء قميص يوسف على وجهه[36]. أما نص عرائس المجالس فإن يعقوب لما علم بموت يوسف المزعوم بكى بكاء شديدا **"ولم يشق له جيبا، ولا خرق له شقا، وصاح صيحة، وخر مغشيا، فلم يفق إلا بعد ساعة طويلة فلما أفاق بكى بكاء شديدا ثم أخذ القميص وجعل يشمه**

ويقبله ويضعه على وجهه وعينيه"[37]. وجلي في هذا المقطع أن الثعلبي قد حرص على أسلمة خطابه بأن انزاح به عن المرجعية اليهودية وطقوس تأبين الميت فأخرج يعقوب في صورة المؤمن المتألم الذي رضي بقضاء الله وقدره واكتفى بالبكاء ولم يشق له جيبا من فرط الجزع على فقدان ابنه واستسلم لأمر الله متخذا من شم القميص وتقبيله سلوى عن الحزن الذي أورثه إياه غياب يوسف واللافت للانتباه أن حاسة الشم ههنا كانت متواطئة مع الألم إذ كانت ترجمانا لعمق الحزن وللعلاقة الحميمية التي ربطت الأب بابنه والمتألم بفقيده.

• <u>ألم الاضطهاد النفسي</u>:

تعتبر قصة إبراهيم مع قومه وموسى مع شعبه من أعتى النماذج القصصية المعبرة عن هذا الصنف من الألم بامتياز. فالمتصفح لقصة إبراهيم في سفر التكوين يلحظ أن ألم إبراهيم إنما مأتاه ترحيله من أور إلى أرض كنعان لأن صراعه مع قومه كان على أشده حتى أنهم لعنوه. فكان أن أمره الرب بترك مسقط رأسه بحثا عن الأمان وبحثا عن أرض مقدسة يباركها الرب ويقدر فيها إبراهيم إتمام نشر رسالته يقول الرب مخاطبا نبيه: " **اترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك واذهب إلى الأرض التي أريك، فأجعل منك أمة كبيرة، وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة لكثيرين، وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك، وتتبارك فيك جميع أمم الأرض"**[38]. فتهجير إبراهيم إنما مأتاه هذا الصدام الفكري بينه وبين قومه والذي جعل منه كائنا شاذا في نظرهم لذلك لعنوه واللعنة فيها احتقار وكره ونبذ للآخر. وهذه النظرة الإقصائية موجعة لإبراهيم مؤلمة إياه لأنها قد تورثه شعورا بالغربة النفسية وسط قومه.

أما في القرآن الكريم فيلوح لنا عمق معاناة إبراهيم على إثر ثورته على واقع الوثن الذي شيده قومه وباركه أبوه آزر. لذلك انبرى ناسفا لهذا الواقع البغيض، منبها أباه من مغبة الاستمرار في غيه وكفره قائلا: "**أ تتخذ أصناما آلهة وقومك في ضلال مبين"**[39]، متصديا لضلال قومه متوعدا إياهم بأن يكيد أصنامهم[40]، فهدمها مما أثار حفيظة قومه، لذلك فكروا في أن يسوموه أشد العذاب، وذلك بحرقه. والحرق في الحقيقة سلوك سادي رام من خلاله عبدة الأصنام من قوم إبراهيم التلذذ بإلحاق الأذى والألم به وبواسطة النار

التي تستحيل سلاحا ووسيلة لتطهير واقع القوم من إبراهيم فكرا وجسدا لولا أن تدخلت يد الله فانقلبت النار بردا وسلاما على إبراهيم. والحرق وسم أريد به تشويه جسد إبراهيم وهو آلية من آليات العقاب هدفها تطويع جسد إبراهيم وترويضه.

أما في نص الثعلبي فيستوقفنا مقطع طريف تفنن فيه القوم في تعذيب إبراهيم وقد جاء فيه قوله: "**كانوا يجمعون الحطب شهرا، حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا وأشعلوا النار في كل ناحية بالحطب، فاشتعلت النار حتى أن الطير ليمرّ بها، فيحترق من شدة وهجها. ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فرفعوه على رأس البنيان، وقيدوه، ثم اتخذوا منجنيقا بإشارة إبليس لعنه الله تعالى، حيث لم يتمكنوا من إلقائه في النار من شدة حرّها، فاتخذوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيدا مغلولا صلوات الله عليه**"[41]. ويطالعنا إبراهيم في هذا المقطع ذاتا نكل بها أيما تنكيل وذاتا مثل بها تمثيلا شنيعا حتى أنها قيدت وكبلت وسط نار حارقة. فألم إبراهيم على هذا النحو إنما مأتاه تفنن قومه في تعذيبه إياه في مشهد احتفالي سادي، رام من خلاله هؤلاء تطويع جسد إبراهيم وترويضه لأنه مارق عن سلطة قومه شاذ عن نواميسها. فالألم إنما كان وسيلة القوم لتشويه هوية إبراهيم جسدا وكيانا ودينا وفكرا.

أما ألم الاضطهاد النفسي في قصة موسى مع قومه فمرده وصمه بالجنون الذي غاب في المرجعية اليهودية، لكنه حضر حضورا لافتا للانتباه في المرجعية الإسلامية نصا تأسيسيا. فالمتصفح لقصة موسى مع شعبه في القرآن الكريم يتوقف عند آية نصها " **إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون**"[42]. والاتهام بالجنون ينم عن إرادة لتطويع جسد موسى وذلك عبر اتهامه في عقله حتى تسقط نبوته. فوجه الألم إذن إنما مداره اغتصاب العقل بغاية الإسفاف من وحي موسى ومعجزاته. وتلك لعمري طريقة من طرق الاحتقار والنبذ والحرص على عزل الجسد الموسوي لأنه مارق عن نظام فرعون. ولم يكتف فرعون وقومه بوصم موسى بالجنون وحسب، بل اتهموه بالسحر، وهو اتهام نعدم وجوده في النص التوراتي لكننا نلفيه حاضرا في نص القرآن الكريم حيث تستوقفنا الآية التالية: "**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون، فقالوا ساحر كذاب**"[43]، وتستوقفنا آية أخرى يتوجه فيها فرعون لأتباعه في تحد لموسى قائلا: "**إن هذا لساحر**

عليم"[44]، ثم يستطرد في موضع آخر قائلا: "**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى"**[45]. والسحر فيما يذكر ابن منظور في لسانه من عمل الشيطان[46]، وهذا الوصم فيه استهجان بموسى وحط من شأنه نبيا واستخفاف برسالته.

ومن وجوه الاضطهاد أيضا تكذيب موسى ففي سفر الخروج نجد فرعون يتحدى موسى منكرا إلهه قائلا لشعبه: "**من هو الرب حتى أطيع أمره، وأطلق إسرائيل؟ أنا لا أعرف الرب ولن أطلق بني إسرائيل"**[47]. ونفس الأمر نعثر عليه في تلافيف القرآن الكريم حين يتساءل فرعون في استكبار عن رب العالمين[48]، مدعيا تفرده بالربوبية[49]، هازئا بإله موسى مرددا في افتخار وغرور: "**أوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين"**[50]. ولم يجب الثعلبي ما جاء به القرآن بل ظل وفيا لخطابه إذ يذكر أن فرعون "**لما عاين من أمر موسى ما عاين لم يزده ذلك إلا عتوا واستكبارا، وعلم من قومه الرعب والخوف فخاف عليهم أن يؤمنوا بموسى ويجعلوه مكانه فاحتال لنفسه وعزم على بناء صرح يقوي به سلطانه ويشيد أركانه فقال لوزيره: يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا"**[51]. قصارى القول إذن لقد أمعن فرعون في شطب جسد موسى ونسف كيانه إما بوصمه بالجنون أو السحر أو الكذب وذلك لأنه مارق عن نظامه مما أورث موسى النبي ألما نفسيا ما كان له أن يتلافاه لولا معونة الإله.

*-<u>ألم العشق</u>:

وتجليه في النصوص المقدسة ونص الثعلبي القصصي تجربتان. أما الأولى فتتصل بامرأة العزيز/ زوجة فوطيفار وعلاقتها بيوسف وأما الثانية فتتعلق بشيلوميث وصلتها بسليمان. فالمتدبر لقصة زوجة فوطيفار / امرأة العزيز مع يوسف سواء في التقليد اليهودي أو الإسلام يتنبه إلى أن الألم في هذه التجربة العشقية إنما مرده افتنان هذه المرأة حد الهوس بموضوع رغبتها يوسف وعجزها عن بلوغ مأربها. حتى استحال يوسف السقم الذي لا برء لها منه إذ ملك عليها كيانها فأصبح "**لا سلطان لها على يوسف ولا سلطان لها على نفسها لأن آية الله هذا الجمال الملائكي والنور الإلهي أقوى من أن يرد"**[52].

فكان عذاب هذه المرأة العاشقة التي وطنت نفسها على ضرورة الالتحام بموضوع رغبتها لأنها تنشد المتعة سبيل خلاصها من هذا الألم، ولا متعة **"إلا بإندغام الجسد في الجسد الآخر"**[53] لأن المتعة ليست إلا **"تلاشيا وضياعا وذوبانا في الآخر"**[54]. لذلك كان الحل أن طلبت زوجة فوطيفار الاضطجاع مع يوسف[55] لأنه أخذ بمجامع قلبها، فجن جنونها وأمسكته من ردائه، لأنه لا سبيل للشفاء من هذا الألم إلا باقتراف الجنس الحرام.

أما في القرآن الكريم فقد راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه وهمت به[56] لأنه شغفها حبا وغلقت دونه الأبواب ولما استعصم قدت قميصه من دبر لأنه لا خلاص من هذا الألم إلا بتعرية جسد يوسف بدافع الغلمة وبالكشف عن المستور المحتجب لأن الإيروس **" لا يوجد إلا عند عتبة الداخلي حيث تدوي كل لذة"**[57]. والطريف في هذه التجربة الغرامية أن اليد لعبت دورا مهما في امتصاص الألم والتهدئة من روع العاشقة لأن اللمس **" يؤدي إلى التهدئة والأمان والتقارب العاطفي وإذا هو لم يخترق مأوى الألم فهو يساهم في نزع فتيله بالإبعاد"**[58]. باختصار لقد كانت اليد وسيلة زوجة فوطيفار / امرأة العزيز **"لترميم الذات في حالة العذاب"**[59].

ولا تكاد صورة راعيل في نص الثعلبي القصصي تختلف عن نظيرتها التي ترسمتها النصوص المقدسة عهدا قديما وقرآنا كريما، لكن القارئ لهذا النص يستوقفه مقطع طريف يكشف فيه صاحبه مظاهر عذاب راعيل لما هامت عشقا بيوسف الجميل حتى راحت تردد: **" يا يوسف ما أحسن شعرك، قال: هو أول شيء يبلى إذا مت، قالت يا يوسف ما أحسن وجهك، قال: ربي تعالى صورني في الرحم، قالت: يا يوسف قد أنحلت جسمي بصورة وجهك، قال: الشيطان يعينك على ذلك، قالت: يا يوسف الجنينة قد التهبت نارا قم فأطفئها، فقال: إذا أطفأتها فمنها احتراقي، قالت: يا يوسف الجنينة قد عطشت قم فاسقها، قال: من كان المفتاح بيده فهو أحق مني أن يسقيها مني، قالت: يا يوسف بساط الحرير قد بسط لك قم فاقض حاجتي، قال: إذا يذهب نصيبي من الجنة، قالت: يا يوسف ادخل معي تحت الستر فأسترك به، قال: ليس شيء يسترني من ربي تعالى إن عصيته، قالت: يا يوسف ضع يدك على صدري تشفني بذلك، قال: سيدي أحق بذلك مني"**[60].

ويلفت انتباهنا في هذا المقطع القصصي عبارات تنتمي إلى معجم الألم من قبيل "أنحلت جسمي" و"التهبت نارا" و"عطشت"، وهي عبارات تحيل على أن راعيل كيان متصدع بالداخل عليل أنهكه الشغف بالمعشوق الذي أورثه حرقة أنحلته فراح يرعى الشهوة ودفعت به الغلمة إلى طلب الالتحام بجسد يوسف والذوبان فيه لأن صداها إلى الجنس قد اشتد حتى صارت تبطن نارا بين جوانحها إذ هي ما عادت تصطبر على موضوع رغبتها، فهي امرأة عاشقة ،والمرأة كما يقول باشلار (Bachelard) تخفي في فرجها دفء النار[61]، وهي تتعطش إل الجنس لأنها تتأمل أن تكون حرثا ليوسف فيسكب ماء ذكره في فرجها عسى أن ترتوي وتولد من جديد. باختصار لقد جعل الألم راعيل ذاتا غريبة عن نفسها لأنه حطمها من الداخل فأنشأها كيانا مثخنا بالجراح جراح الهيام وكيانا يتجرع مرارة الألم الناجم عن عجزه على امتلاك موضوع رغبته.

• <u>ألم الشعور بالذنب ووخز الضمير</u>

وهو أوضح ما يكون في قصة قابيل وهابيل أو ابني آدم، هذه القصة التي تشكل **"النموذج الأول لطقس القربان، كما تحكي العلاقة القائمة بين الرب والإنسان وتظهر إلى جانب ذلك جانبا من العنف الذي مورس من قبل قابيل على هابيل"**[62]. بل إنها النموذج الباهر لألم الضمير وعذابه. فالمتدبر في هذه القصة سواء في تلافيف سفر التكوين أو بين طيات القرآن الكريم يلحظ أن الندم والشعور بالذنب إنما مأتاه فعل القتل ذلك أن قايين في التوراة تظاهر بالود لأخيه هابيل ثم **"هجم على أخيه هابيل وقتله"**[63]، أما في نص الوحي الإسلامي فإن قابيل قد **"طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين"**[64].

وإذا كان النص التوراتي غير صريح في الكشف عن مشاعر قايين الجاني على إثر اقترافه لجريمة القتل إذ لا نظفر في هذا النص إلا بوطأة الإحساس بالعقاب الإلهي حين يخاطب قايين ربه قائلا: **"عقوبتي أعظم من أن تحتمل"**[65]، إذا كان الأمر على هذا النحو من التكتم والغموض في التقليد اليهودي، فإن القرآن الكريم بدا في هذا المستوى واضحا بينا

إذ ندم قابيل عما اقترفت يداه من ذنب وأبدى عجزا عن مواراة سوءة أخيه أمام قدرة الغراب على ذلك، لذلك ردد في انكسار قائلا: "**يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين**"[66].

أما الثعلبي النيسابوري فقد بدا وفيا لمتن الخطاب القرآني مقتفيا أثره مؤكدا على عمق شعور الأخ الجاني قابيل بمرارة الندم وصحوة الضمير. وعليه إذن فالشعور بالذنب والخيبة ووخز الضمير التي كان يضمرها قابيل إنما مأتاها السعي إلى معانقة المقدس وذلك عبر القربان الذي لم يحدث إلا بالعنف لأن "**الدين لا يستقيم في عالم القرابين إلا في ظل العنف**"[67].

2-2-**الألم العضوي وأصنافه**

*-ألم المرض

تطالعنا قصة أيوب عند الرحيل الثقافي من الديانة اليهودية إلى الإسلام التجربة الأميز لا في الألم بل في العذاب لأن "**العذاب هو الصدى الحميم للألم**"[68] وهو خصيصا عذاب المرض، وهو مفهوم يجليه في القرآن الكريم مصطلحا الضر[69] والعذاب[70]، أما في العهد القديم فيوضحه المقطع التالي الذي نصه: "**قد يقوم الإنسان على مضجعه وبالأوجاع الناشبة في عظامه حتى تعاف حياته الطعام وشهيته لذيذ المأكل، يبلى لحمه فيختفي عن العيان، وتنبري عظامه التي كانت خافية من قبل تدنو نفسه من الهاوية وحياته من زبانية الموت**"[71].

وإذا كان هذا العذاب في نص الوحي الإسلامي ملغزا غير بين لأن القرآن لم يفسره، فإنه في سفر أيوب بدا جليا أصلته محاكمة أيوب لنفسه لما اتهمه أصدقاؤه بأنه مذنب في حق الرب مارق عن سلطته. ففقد أيوب الضحية بداهة الوجود لانكسار داخلي ألم به أورثه العذاب الذي اقتلعه من ذاته حتى أضحى جسمه غريبا عنه إذ هو بنيان سريعا ما تهاوى لأنه مثقل بالأوجاع التي أفقدته شهية الأكل. فذوى ونحل حتى بلي منه اللحم ونتأ العظم وأشرف على الهلاك والموت. والطريف في تجربة أيوب الأليمة أن العذاب كان قاسيا حتى أفقد الضحية القدرة على الاستمرار بالحياة لأنه "**كلما زادت حدة العذاب كلما صار عجزا واحتلالا للذات**"[72]. فصار أيوب العليل لا يقوى على يقوى على الحراك لأن قواه قد

خارت ولا يقوى على التحمل لأن العذاب دمر قدراته على المقاومة، لذلك أشرف على الموت وكاد أن يلقى حتفه لأن هويته صارت مهددة وآيلة إلى التلاشي والاندثار إذ العذاب ليس إلا **"تحطيما وإحساسا بالضياع"**[73].

وإذا كان القرآن الكريم قد تكتم عن وجه عذاب أيوب، فإن نص الثعلبي قد أبان عنه حتى لاح لنا جسد أيوب كيانا متهالكا، تلاشت هويته وبلغ فيه أوار العذاب كل مبلغ، وتجلى جسدا غريبا عن صاحبه لأنه تآكل من الداخل وانحلت مادته بفعل الشيطان الذي سلطه الله على جسد أيوب **" فنفخ في منخريه نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم. ووقعت فيه حكة لا يملكها ولا يتماسك عن حكها، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم بالفخار والحجارة، فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه، وتقطع وتغير وأنتن. فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا"**[74]. والذي يجليه هذا المقطع أن العذاب قد فتك بأيوب حتى امتص هالته وفكك جسده فأضناه حتى أفقده معنى الحياة إذ استحال جسدا مثقلا بالثآليل، ومثخنا بالجروح، وبنيانا هزيلا وهن منه العظم وفسد اللحم. باختصار لقد صير العذاب أيوب غريبا عن ذاته، حتى فقد الإحساس بالألم. لقد تمكن العذاب من جسد أيوب حتى حطمه ورمى به الوضع الأسوإ.

*-<u>ألما الختان والخفض</u>

قد لا يعثر القارئ المتصفح للقرآن الكريم ولعرائس المجالس للثعلبي النيسابوري عن أمر ذي بال يتعلق بهذا الصنف من الآلام لأن الختان لم يكن قضية مطروقة بالأساس في هذا النص التأسيسي وفي النص القصصي أيضا، لكنه يتوقف على أمور ذات مغزى خاصة في ثنايا النص التوراتي. فالمتدبر للعهد القديم يلفت انتباهه اهتمام اليهود بطقس الختان اهتماما عظيما ناهيك أنه كان طقس عبور ضروري لدخول النبي موسى إلى القبيلة اليهودية، وكان شرطا لا بد منه لإقامة الفصح مثلا في عهد موسى[75]، وهو شرط شاول في زواج داود من ابنته ميكال، ولكنه في تجربة إبراهيم كان وسيلة للتقرب من الرب وكان أمارة على العهد الذي قطعه الرب مع إبراهيم، حين وعده بأن يعطيه ونسله الأرض الموعودة أرض كنعان مقابل أن يقطع غلفته وغلفة كل ذكر من نسله وعبيده. جاء في

سفر التكوين قول الرب لإبراهيم: "**أقيم عهدي الأبدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك جيلا بعد جيل، فأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأهبك أنت وذريتك من بعدك جميع أرض كنعان**"[76]، ثم يستطرد قائلا: **أما أنت فاحفظ عهدي، أنت وذريتك من بعدك مدى أجيالهم، هذا هو عهدي الذي بيني وبينك وبين ذريتك من بعدك الذي عليكم أن تحفظوه: أن يختن كل ذكر منكم تختنون رأس قلفة غرلتكم فتكون علامة العهد الذي بيني وبينكم، تختنون على مدى أجيالكم كل ذكر فيكم ابن ثمانية أيام سواء كان المولود من ذريتك أم كان ابنا لغريب مشترى بمالك ممن ليس من نسلك**"[77].

والواضح أن هذا النص غامض إذ هو لا يكشف عن حقيقة ألم إبراهيم في طقس الختان بصورة مادية واضحة ولكننا نذهب إلى أن هذا الألم إنما هو ألم رمزي ذلك أن الختان هو جرح للجسد وقطع للحم وإراقة للدم لأن الرب في المتصور اليهودي متعطش دوما لهذا السائل العجيب، فلا قرب من الإله إلا بسيلان الدم. لأنه مطلب إلهي والختان وشم على الجسد وتضحية بالجزء بدل الكل، إنه شكل من أشكال القربان لأن "**الدين لا يستقيم إلا في ظل القرابين**"[78]. وإبراهيم استباح إراقة دمه واقتطاع جزء من جسده خشية عنف القدسي، باختصار إن النبي إبراهيم في التقليد اليهودي إنما تحمل ألم الختان من أجل نيل رضا الرب ومعانقة رحاب المقدس. وكأننا بالختان وهو وجه من وجوه تقديم الدم ليس إلا ثمنا للغفران.

أما عن قصة خفض هاجر فنعدم وجودها في نص الوحي اليهودي وفي نص الوحي الإسلامي لكننا نلفي النص القصصي قد أفسح المجال لهذا الحدث وأفاض في الحديث عنه معولا في ذلك على العجيب المدهش. فالخفض مأتاه غيرة سارة من هاجر لأنها لقيت هي وابنها الحظوة عند إبراهيم، لذلك أخذ سارة "**ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقها**"[79]، وأملى عليها إبراهيم خفض هاجر قائلا: "**اخفضيها واثقبي أذنيها ففعلت ذلك**"[80]. وجلي ههنا أن ألم هاجر إنما مأتاه الخفض لأنه وجه من وجوه الإذلال[81]، إذ منتهى ما كانت تهفو إليه سارة هو جعل جسد هاجر جاهلا للذة الجنسية لأنها "**قدرة أنثوية استثنائية وهي الخصوبة والإنجاب**"[82]، ومنتهى ما تمني سارة نفسها به إنما هو شطب جسد هاجر لأنه كيان واعد بالخصب والولادة. والخفض

وشم على الجسد أريد به تغيير كيان هاجر ومسخه لأنها رحم منتج واعد بالخلق ولأنها أنثى مثيرة ومحركة لغلمة الذكر إبراهيم. لذلك باتت هاجر الجسد الضحية في تجربة الخفض الأليمة.

*-ألم المخاض

مثلت قصة مريم وحبلها البتولي مثالا باهرا لهذا الصنف من الآلام. ومنشأ هذا الألم أن حبل مريم كان غير مألوف ومارقا عما عهده المجتمع اليهودي والإنسان بصفة عامة، إذ هو حبل بنفخة من الروح القدس لا بنفخة من الرجل الإنسان وذاك ما أورث مريم الخوف[83] فقد قالت مريم مخاطبة الملاك: "كيف يحدث هذا وأنا لست أعرف رجلا"[84]. فمريم كانت تبطن ألما داخليا مأتاه الخوف من سلطة الدين والمجتمع والأعراف، إذ الحبل على هذا النحو وبأمر ألهي قد يحول مريم في نظر مجتمعها إلى كائن نجس و**"موضوع تهمة يقتضي التصدي له وشرعنة ذلك"**[85]، لأن مريم إنسان لا يملك غايته في ذاته بل هي تحيا مع الآخر وهي مرتبطة بمحيطها وبالمجتمع الذي تتحرك فيه. فالألم الذي تضمره مريم بين جوانحها إنما يتأتى من هوسها المفرط بقيمة الطهارة طهارة الدم وطهارة النسل لأنها الوسيلة لبلوغ المقدس السرمدي.

ولكن هذا الألم سيزداد حدة على أرض الواقع حين يضطهد المجتمع اليهودي مريم فيلاحقها ويتوعدها بقتل ابنها الذي أنجبت[86]، فتضطر إلى هجر مدينتها بحثا عن الأمان ولا تعود إليها إلا حين يموت الملك هيرودوس لأن مأساة مريم أنها جسد مارق عن النظام فلا وجود لفرد دون نسب بل لا مكان للجنس الحرام والفاحشة (الزنا) لأنها فوضى تهدد النظام المجتمعي.

وإذا كان ألم مريم في المرجعية اليهودية مرده الخوف من المقدس من سلطة الدين والأعراف المجتمعية، فإن الألم كذلك في المرجعية الإسلامية وفي هذا المستوى يمثل امتدادا لنظيره في اليهودية إذ انتاب الخوف مريم في القرآن الكريم لما فاجأها الملاك وأحاطها خبرا بأنه سيهب لها غلاما زكيا[87]، فكان وقع الخبر عليها شديدا، لذلك أنكرت هذا الحبل مرددة: **"أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا"**[88]. فأشد ما كان يؤلم

مريم أن تكون قد زنت فتضحي بذلك مارقة عن المقدس وعن المنظومة القيمية الأخلاقية التي لا تؤمن إلا بالشرف والعفة ولا تؤمن بمريم إلا بوصفها كيانا طاهرا.

وقد بلغ الألم بمريم مبلغا كبيرا فتملكها الحزن[89]، ومنت نفسها بالموت[90] خشية أن ينتبه إليها قومها فيفتضح أمرها. وتحول الشعور بالألم إلى سلوك سادي حاولت من خلاله مريم أن تعذب نفسها لأنها استنكرت حبلها المباغت واستعظمته لذلك لما فاجأها المخاض انتبذت لنفسها مكانا قصيا[91]، وآلت على نفسها الصمت إمعانا في شطب جسدها الذي تراءى لها وفي نظرها جسدا متهما وتأكيدا لسحر المعجزة وصدق البيان، إذ لا خيار لها إلا أن تلجم نفسها عن الكلام حتى تبرهن عن طاعتها للقدسي وإيمانها بالله الذي امتحنها.

أما مريم القصص فلم تكن تختلف كثيرا عن نظيرتها في العهد الجديد والقرآن الكريم إذ لاحت لنا كيانا مهزوزا من الداخل وأشد ما يؤلمه خوفه من هذا الحبل البتولي والذي من شأنه أن يجعل مريم موصومة بالزنا مارقة عن سلطة الدين وسطوة الأعراف والتقاليد المجتمعية. لذلك قطعت صلتها بالعالم الخارجي وانتبذت مكانا قصيا خشية أن ينكل بها أو تقتل هي وابنها مثلما أوحى الله حين أخبر ها قائلا: "**إنك إن ولدت بين أظهر قومك عيروك وقذفوك وقتلوك وولدك فأطغي من عندهم أي فاخرجي**"[92]. فمريم قد أضناها الألم لأن عذاب قذف الآخرين لها وتوعدهم إياها بالقتل قد سكن كيانها لقد أصبحت مريم تواجه مسبقا فكرة الموت لأن حبلها أضحى محنة لا خلاص منها إلا بالموت. ثم إن الألم جعل مريم تتذكر دوما نهائية الإنسان وأن النفي قدرها لا محالة.

*-<u>الألم طقس ديني</u>

وهو أوضح ما يكون في تجربتي ابن إبراهيم الذبيح والمسيح. ذلك أن المتأمل في قصة القربان الإبراهيمي يستقر لديه أن ابن إبراهيم سواء في التقليد اليهودي أو الإسلام كان الضحية التي هم الأب إبراهيم بتقديمها للإله حبا فيه في المرجعية الإسلامية، أما في اليهودية فذبح إسحاق كان لا بد منه لامتصاص غضب يهوه واحتوائه. لأن أخشى ما يخشاه إبراهيم العبري عنف المقدس. واللافت للانتباه في كلتا التجربتين أن ابن إبراهيم استبيح جسده ليكون نموذجا لمنتهى الفداء فقد كان هذا الأبن بديلا عن الحيوان من أجل مرضاة الإله وكان بديلا عن القربان الحيواني من أجل المصالحة والمواءمة بين

الإنسان والإله. لقد كان ألم ابن إبراهيم لا بد منه حتى تكتمل مراسم الطقس الديني. أما في نص الثعلبي فنلفي الابن الضحية مباركا لطقس الذبح مبديا شجاعة لتحمل ألم المدية وهو يضعها الأب على رقبته، بل إنه عمد إلى تنبيه أبيه إلى ضرورة إحكام وثاقه عند الذبح مواسيا إياه في فقدانه فهو القائل: "**يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واشحذ شفرتك وأسرع بمر السكين على حلقي ليكون أهون للموت علي، فإن الموت شديد**"[93]. ويلوح لنا الابن الذبيح في متخيل القصص الديني كيانا يستلذ شعيرة الذبح بل يباركها ويدعو إلى ضرورة الالتزام بطقوسها من شد للرباط وكف للثياب وشحذ للشفرة لأن الضحية ههنا تبطن اللذة لا الألم والمتعة لا العذاب.

أما عن قصة ألم المسيح عن طريق الصلب فلا نكاد نظفر بها إلا في التقليد المسيحي لأن الإسلام نسف هذه المقولة من جذورها ونفاها مستعيضا عنها بالرفع فقد جاء قوله في سورة النساء: " **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن سبه لهم**"[94]. غير أننا نلفي الثعلبي النيسابوري في نصه القصصي يصرح أن الذي صلب هو من ألقي عليه شبه عيسى[95]. والمتصفح لحيثيات صلب المسيح في سفر متى يلحظ أن الصلب كان لا بد منه لرفع الخطايا عن البشرية "**فكان المسيح كبش الفداء الذي لابد أن يموت حتى يزول ما أصاب المجتمع من تصدع**"[96]، وكان ألمه ضرورة لا محيد عنها لأنه كان "**طقسا من طقوس العبور تمّ في عالم العنف الشديد ولكنه مكن الإنسان من المرور إلى عالم الإله**"[97].

والطريف أن عيسى في المرجعية المسيحية بدا مقبلا على حادثة الصلب رغم أنها موكب رهيب قد يبعث في النفس التهيب والخوف والوجل والتردد، إذ الصلب كان خاتمة أحداث العشاء الرباني والقبض على يسوع ومحاكمة اليهود له وتسليمه إلى الملك بيلاطس الذي أذن بصلبه ثم اقتياده إلى الجمجمة والسخرية منه. وهناك سيلقى حتفه. والمسيح لم يكن يتهيب هذا المشهد لأنه استباح دمه في سبيل شعبه وحبا في الآب فهو القائل: "**إن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد والذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا**"[98]. باختصار لقد كان ألم الصلب الفدية التي جاد بها المسيح من أجل خلاص شعبه والكفارة

التي كان لابد منها ابتغاء مرضاة الرب فكان أن أهدى المسيح جسده للأكل ودمه للشرب[99].

خاتمة البحث

لقد أسلمنا البحث في النصوص الدينية التي اعتمدنا إلى أن الألم كان البوابة التي نفذنا منها إلى قراءة دواخلنا والحميمي فينا وقراءة جانب مطموس من الجسد في التجربة النبوية هو الجانب الانفعالي. فلاح لنا أن الألم نفسيا كان أم عضويا إنما كان في النصوص المقدسة ونص عرائس المجالس للثعلبي النيسابوري الوسيلة التي كشفت لنا خبايا هذا الجسد الملغز وأسرار هذا الكيان المعقد والذي مازال يفرض نفسه علينا يوما بعد آخر على حد تعبير دافيد لوبرتون(David Le berton). وانتهينا إلى أن الألم كان المداد الذي أريق به الخطاب الديني بل هو الآلية التي توسلها النبي لمعانقة المقدس. باختصار لقد كان الألم طقسا دينيا وتجربة كان لابد للنبي أن يحياها حتى يأمن عنف المقدس. فكان يتألم ويتعذب ويتأوه ويتجرع مرارة العذاب إما بفعل المرض أو سوء المعاملة أو قسوة المقدس التي تجعله كيانا ضعيفا غير قادر على المقاومة حتى ليكون الموت أقرب إليه من حبل الوريد. لقد كانت تجربة الألم في حيوات الأنبياء الذين عرضنا لهم طي هذا البحث تجربة قاسية حطمت ذات المرء من الداخل لكنها بعثته من جديد حين صالحت بينه وبين المقدس فكان الألم عودة إلى الحميمي والبدئي فينا.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

•المصادر:

-القرآن الكريم، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة 1405هـ

-الكتاب المقدس، كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية، 1988.

-النيسابوري (الثعلبي)، عرائس المجالس، المكتبة الثقافية بيروت، د.ت.

•المراجع:

1-ابن منظور، لسان العرب، دار الج يل، د.ت.

2-أنزيو(أني)، المرأة بعيدا عن صفاتها: رؤية إجمالية. للأنوثة من زاوية التحليل النفسي، ترجمة طلال حرب، المؤسسة الجامعية للدرسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى .1992

3-باشلار(غاستون)، التحليل النفسي للنار، ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس، الطبعة الأولى .1984

4-بن حتيرة(صوفية السحيري)، الجسد والمجتمع، دار محمد علي الحامي، تونس، الطبعة الأولى .2008
5-بن سلامة(رجاء)، العشق والكتابة، منشورات الجمل، كولونيا/ ألمانيا، الطبعة الأولى 2003.
6-الثابت(زهرة)، العشق في النصوص المقدسة، دار مسكلياني للنشر، تونس ودار الرافدين، العراق، الطبعة الأولى، .2019
7-الجرجاني، التعريفات، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.
8-حما(الحسن)، طقس القربان في الأديان الوضعية والسماوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب ومؤمنون بلا حدود، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، 2014.
-9 السعفي(وحيد)، العجيب والغريب، الأوائل للنشر والتوزيع، سوريا/ دمشق، الطبعة الأولى، أيار 2006.
10-السعفي(وحيد)، القربان في الجاهلية والإسلام، تبر الزمان، تونس، .2003
11-صليبا(جميل)، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت/لبنان، .1982
12-عبد العظيم(حسني إبراهيم)، الألم الإنساني، رؤية مغايرة، مقال صدر بموقع(mana)، بتاريخ 18 مارس، .2019
13- ، الألم مقاربة سوسيو-أنتروبولوجية، مجلة نقد وتنوير، عدد2، سبتمبر/ أكتوبر/ نوفمبر/ خريف 2015.
14 -لوبرتون(دافيد)، تجربة الألم بين التحطيم والانبعاث، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، الطبعة الأولى، 2017.
15-محمود(إبراهيم)، الشبق المحرم، رياض الريس للكتب، الطبعة الأولى 2002,
16-الوهايبي (المنصف)،الجسد المرئي، الجسد المتخيل في شعر أدونيس: قراءة تناصية، بحث لنيل شهادة التعمق في البحث، إشراف توفيق بكار، كلية العلوم الإنسانية 9أفريل، تونس، السنة الجامعية 1987.
-17 .Morris (David), The culture of pain, 2010-

الهوامش:

[1]-دافيد لوبرتون، تجربة الألم، ص.10.

[2]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3]-حسني إبراهيم عبد العظيم، الألم الإنساني: رؤية مغايرة، مقال صادر بموقع معنى (mana)، بتاريخ 18 مارس 2019.

[4] - Morris David, The culture of pain, 2010, p.133.

[5]-ابن منظور، لسان العرب، مادة (ألم).

[6]-الجرجاني، التعريفات، ص.32.

[7]-جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مادة (ألم)، ص.123.

[8]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[9]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[10]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[11]-المرجع نفسه، صص124/123.

[12]-انظر حسني إبراهيم عبد العظيم، الألم مقاربة سوسيو-أنتروبولوجية، مجلة نقد وتنوير، العدد 2، سبتمبر/أكتوبر/ نوفمبر/ خريف 2015، صص.196-197.

[13]-المرجع نفسه، ص.197.

[14]-انظر دافيد لوبرتون، تجربة الألم، ص.11.

[15]-المرجع نفسه، ص.13.

[16]- انظر على سبيل المثال تعاريف أفلاطون وأرسطو وديكارت للألم.

[17]-دافيد لوبرتون، تجربة الألم بين التحطيم والانبعاث، ص.10.

[18]-التكوين 2: 16-17.

[19]-التكوين 3: 7

[20]-التكوين 3: 16.

[21]-انظر التكوين 3: 16.

[22]-انظر التكوين 3: 17- 18- 19.

[23]-انظر الأعراف 7: 19.

[24]-الأعراف 7: 22.

[25]-الأعراف 7: 23.

[26]-انظر الأعراف 7: 24// طه 20: 123// البقرة 2: 36.

[27]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، ص.27.

[28]-المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[29]-المصدر نفسه، ص.28.

[30]-المصدر نفسه، ص.29.

[31]-المصدر نفسه، 29.

[32]-التكوين 37: 35/34.

[33]-صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دار محمد علي الحامي، تونس، الطبعة الأولى 2008، ص. 244.

[34]-انظر يوسف 12: 84.

[35]-رجاء بن سلامه/ العشق والكتابة، ص.152.

[36]-انظر يوسف 12: 93.

[37]-الثعلبي النيسابوي، عرائس المجالس، ص.101.

[38]-التكوين 12: 1و2و3

[39]-الأنعام 6 : 73.

[40]-الأنبياء 21: 57.

[41]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، ص.67.

[42]-الشعراء 26: 27.

[43]-غافر 40: 23-24.

[44]-الشعراء 26: 34.

[45]-طه 20: 56- 57.

[46]-انظر ابن منظور، لسان العرب مادة (سحر).

[47]-الخروج 5: 2.

[48]- انظر الشعراء 26: 23.

[49]-انظر القصص 28: 38.

[50]-القصص 28: 38.

[51]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، ص.167.

[52]-وحيد السعفي، العجيب والغريب، ص.270.

[53]-المنصف الوهايبي، الجسد المرئي، الجسد المتخيل، ص. 256.

[54]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[55]-انظر التكوين 39: 7 و12.

[56]-يوسف12: 23-24.

[57]-آني أنزيو، المرأة بعيدا عن صفاتها: رؤية إجمالية للأنوثة من زاوية التحليل النفسي، ص.31.

[58]-دافيد لوبرتون، تجربة الألم، ص.51.

[59]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[60]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، صص104-105.

[61]- يقول باشلار في هذا الصدد " إن المبدأ الأنثوي هو حضن وملاذ ودفء"، انظر التحليل النفسي للنار، ص.78.

[62]-الحسن حما، طقس القربان في الأديان الوضعية والسماوية، ص.93.

[63]-التكوين 4: 8.

[64]-المائدة 5: 30.

[65]-التكوين 4: 13.

[66]-المائدة 5: 31.

[67]-وحيد السعفي، القربان في الجاهلية والإسلام، ص.226.

[68]-دافيد لوبرتون، تجربة الألم، ص.18.

[69]-انظر الأنبياء 21: 83.

[70]-انظر ص 38: 41.

[71]-سفر أيوب 33: من 19 إلى 22.

[72]-دافيد لوبرتون، تجربة الألم، ص.19.

[73]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[74]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، ص.138.

[75]-انظر الخروج الأصحاح 4.

[76]-التكوين 17: 7-8.

[77]-التكوين 17: من 9 إلى 12.

[78]-وحيد السعفي، القربان في الجاهلية والإسلام، ص.13.

[79]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، ص.71.

[80]-المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[81]-انظر دلالة خفض في لسان العرب لان منظور

[82]-زهرة الثابت، العشق في النصوص المقدسة، ص.91.

[83]-انظر قول الملاك مطمئنا مريم في سفر لوقا 1: 30-31.

[84]-لوقا 1: 34.

[85]-إبراهيم محمود، الشبق المحرم، ص,149.

[86]-انظر موقف هيرودوس حين أحاطه المجوس خبرا بمولد المسيح / راجع متى 2: من1إلى 16.

[87]-انظر مريم 19: 19.

[88]-مريم 19: 20.

[89]-مريم 19: 24.

[90]-مريم 19: 23.

[91]-مريم 19: 22.

[92]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، ص.344.

[93]-الثعلبي النيسابوري، عرائس المجالس، ص.82.

[94]-النساء 4: 157.

[95]-انظر عرائس المجالس، ص.360.

[96]-وحيد السعفي، القربان في الجاهلية والإسلام، ص.148.

[97]-المرجع نفسه، ص.149.

[98]-انظر متى 26: 28.

[99]-انظر وحيد السعفي، القربان في الجاهلية والإسلام، ص.145.